«الضوء الأزرق»(1)

حسين جميل برغوثي*

التقيت مرّة فتاة تدعى ماري، من تربية رهبان الـ«جزويت»، فيلسوفة تكتب قصصاً قصيرة رائعة، ولم تنشر شيئا. قالت: «أنا كاتبة مشهورة غير معروفة»، كنا نجلس في شبّاك غرفتها، ليلاً، مطلّين على هدير المحيط. قالت: «حسين، إن شخصا لا يعطيني معرفة، ويوسع مداركي، ولا يأخذ مني معرفة ويوسع مداركه، شخص لا حاجة لي به». وأخذت تهزّ جسمها في كرسي قش وتحدق في هدير المحيط، وأكملت: «كان لي صديق ياباني يجلس هنا ويتمتم: فلنركز، فلنركز، فلنركز!».

فتاة غريبة، شقراء، تركتها وهي تتدرب مع الهنود الحمر على أن تكون ساحرة، وترقص للقمر. وأنا بحاجة إليك، وسأرقص معك للقمر عند الضرورة.
أنا إنسان بسيط جدا يساء، دائما، فهمه، ولهذا كنت دائما على الهامش، هامش الحياة والكلام. ولا أريدك أن تسيء فهمي أنت، أيضاً.
منذ الطفولة، كنت أمشي في البراري، وأنا أحمل أنبوبة برتقالية من خشب تدعى «قلماً»، وأتمتم: «قلم! قلم! قلم!»، ولا أرى صلة بين هذه الكلمة وبين تلك الأنبوبة. وبدت لي «الكلمات» كلها وجوداً سحرياً، روحاً مائعة هائمة فوق الأشياء، مثل روح الرب فوق الماء. وحتى عندما سمعت بكلمة «بريطانيا»، لأول مرة، في بيروت، في مجلة عسكرية أعطانيها رجل من طرابلس، سحرتني موسيقى الأحرف: بريطانيا!، سحرتني الأحرف، وبالذات «الياء» و«الألف»، وسحرني أكثر أن لا معنى أبدا لكل الكلمة، عندي، أيامها. كانت وكأنها تبرهن أن لا وجود لأية صلة بين أية كلمة وأي شيء. أحببت الكلمات المغلقة، التي من هذا النوع، وحفظت الكثير من الأسماء الأجنبية مثل «بريطانيا»، و«سينما كارمن»، لأنها مغلقة. طورت ذاكرة خاصة لكل ما هو «أعجمي»، ومغلق في الروح.

وكنت أمشي، في جبال رام الله، نحو الينابيع، في زرقة سماء الصيف، وغبار الظهيرة، فأكتب اسمي«حسين» في الزرقة، بأصابعي، ثم أبتعد مسافة ما، وأنظر نحوه من بعيد، فيبدو لي، أحياناً، مائلاً، مثل لوحة على جدار، فأعود إليه وأعدله، أحياناً، أو أعدّل البقعة الزرقاء نفسها، أحيانا، أو أتركه مختل التوازن، هكذا، وأمضي. أمشي وأهمس بأحرف اسمي لنفسي، كأنني كنت أعرف قول شيخ الصوفية محيي الدين بن عربي أن الأحرف أمم: وبكل حرف نستحضر أمة من أمم الجنّ، كنت أسمع صفير جن في الحاء والسين والياء والنون. حيرتني الكلمات، هذه البلورات الزجاجية من هواء ملون. ولاحظ أقاربي الطفل الذي يكتب في الزرقة بإصبعه، ويكلم نفسه، فلقبوني بـ«أهبل» و«فرخ أهبل». السلطة السحرية التي يمارسها الاسم على المسمى فظيعة. ليست المسألة أن هناك «شيئاً» أو «شخصاً» يسميه أقاربي «الأهبل»، لا! بالعكس، يتم خلق شخص «أهبل» في داخل حسين الحقيقي، هوية بلهاء، يوحون لي بأنني «أهبل»، فأصير كما يوحون لي. الأهبل موجود في داخل الكلمة نفسها، ويدخل إلى «أذنيّ»، ومن هناك يسري إلى قلبي، ويستيقظ فيّ جسد ذهني دخيل، بعثه دخلاء على عالمي. سحر أسود؟ ربما، ربما. فقط حديثا بدأت ببحث معنى هذه الكلمة المغلقة: «أهبل»:

ليست عربية، أصلاً، بل مشتقة من اسم إله القمر، قبل الإسلام، «هبل»، ومن معانيها في الآرامية «الدخان». وبدا وكأن الدخان القمري أبي، نعم، أبي الحقيقي. لم يعد حسين هذا ابناً للأرض ولا منها، ولا حتى ابناً لأبيه، ولا أتكلم الآن كي أوزع الاتهامات على أحد، بل لأفسر كيف ولد «حسين الغريب»، الأشبه بمجمع بلهاء وغرباء، ولديهم، رغم ذلك، حكمتهم.

صرت في كل عيد، من أول الصبح، أتسلل للتسكع في الجبال، حتى يهبط الليل، كي لا أرى أحداً، وأحلم، إن صادفني الناس، بـ«طاقية إخفاء»، إن لبستها لا يراني أحد، ولا يسمعني أحد، لكنني أرى الجميع، جالسا في الزاوية الأبعد في كهوفهم، تحت الإضاءة الصفراء والحمراء لمصباح «كاز»، خفيّاً، كروح، وأسمع، وأرى، وأشعر، وأشمّ حتى عرق زوجاتهم، ولكنني فضّلت أن أدفن نفسي في «طاقية» على أن أكون بصحبتهم. سحر أسود؟ ربما، ربما. أفهمني جيداً. «طاقية الإخفاء» حلم الجبناء. وربما كنت جباناً، ولم لا؟ لا أخجل من ذلك، من منا ليس جباناً لهذا السبب أو ذاك؟ وماذا كان باستطاعة طفل أن يفعل لحماية نفسه أمام من هم أكبر سنا وقوة منه، غير أن يكون جباناً؟ صرت «آخر»، لم أعد أنا أنا، ولا هم هم، ولا هنّ هنّ، ولا معنى لـ«نحن»، أبداً.

«أعتقد أنك تشعر بالنقص».

«أشعر بالنقص ليس أمام الناس، بل أمام الصحراء».

«واو! واو! يا رجل!».

ولقبوني بـ«سطل»، اسم آخر لهوية بلهاء أخرى، خبراء النهش لا حدّ لقدرتهم على الاختراع. سحرة، ولم يكن لحسين الصغير عصا النبي موسى كي يلقي بعصاه فإذا بها حية تسعى وتلتهم حيّاتهم. حدث هذا، أعني اللقب الجديد، فهو «حدث»، كما ترى، حين عاد أبي من بيروت لزيارتنا، وأتى أقاربي للسلام عليه، وكان بينهم إمام أعمى، يحفظ شعر العرب، ويعتبره أبي مثال الحكمة، ويشم «سعوطا»، من علبة معدنية بنية يحملها، دائماً، في جيبه، وترك «السعوط» على شاربه صبغة صفراء أميل للحمرة،

وكان بينهم، وكان «أحكمهم»، و«إمامهم»، وسأله أبي عن رأيه فيّ. حرك رأسه يمنة ويسرة، وقال: «يا بو حسين! ابنك سطل!». كنت طفلاً، وحدقت في مدى ثقته بما يقوله، كان مؤمناً ببلاهتي أكثر مما آمن موسى عليه السلام بالله لما كلمه الله من جانب الطور الأيمن. سطل! أي «أهبل». نقطة. ولا أي برهان أو جدل يكفي لإزاحة ذرة من هذا العلم «اللدنّي».

وأبي كان «إله صمت»، مغلقاً على نفسه، ككل أب فلسطيني في ذلك الزمن. كتم غيظه من هذا «السطل»، حتى منتصف الليل، فأيقظني من نومي، وقال: «اذهب للعين، واسق البغلة!».

كانت عندنا بغلة عسلية اللون، ضخمة الهيكل، مربوطة في «مخزن» بباب حديد. سحبتها من رسنها خائفاً، شبه نائم، حافياً، ومشيت في الجبال، في طرق برّية مقمرة صامتة، بعيدة عن أي إنس، وعن بيتنا، وكنت أسمع موسيقى ترنُّ في الصمت المطبق للخلاء، والبراري، كأجراس في يد جنّية أو غول على فروع زيتون قريب، جامد، تحته ظلال يسري فيها حدس بجنون العالم. وقفت خائفاً أمام حوض ماء قرب صخرة كبيرة، والبغلة تشرب، حيناً أداري خوفي بالنظر إلى ظلال الزيتون المقمرة، وحيناً بالنظر في عيونها الكبيرة وفي رموشها، وأسمع غيباً في «بقبقة الماء».

وتذكرت حكاية «جبينة»، البيضاء كالجبن، التي صعدت إلى «شجرة دوم»، لتلتقط الدوم وترميه إلى صاحبات أخريات لكي يضعنه في كيس من جلد، لكنهنّ يحسدنها على جمالها، ويردن بها سوءاً، فجمعن عقارب، وجرادا، وخنافس، وحجارة في كيسها، ثم تركنها منهمكة في تلقيط الدوم ورجعن إلى البيت، وظلت جبينة على الشجرة. وصعد القمر، وجاء غول فوقف في ظل الدومة و«شمشم» حولها ثلاثاً، وقال: «رائحة إنس على دومتي»، ورأى «جبينة» فوق، فقال لها: «سيدي بو القرنين»، أن تقفز على قرنيه. فقفزت على القرن اليسار، وفكر في أكلها، ثم غير رأيه وأخذها إلى بلاده، لترعى أغنامه في جبال الشوك، وتغنّي وحدها:

«يا طيور طايرة عالجبال العالية
قولي لأمي وأبوي
جبينة راعية.
ترعى ورّ
وتمشي غرّ
وتقيِّل تحت الداليةْ».

وتخيلت بأن الغول سيأتي الآن ليقبض عليّ، سيشمّ رائحة «طفل إنس» قرب مائه. وبدأت أتخيل الغول قرب العين: سوف يحرسني الله، يحرسني الله!. وماذا لو كان الله قد خلق الكون، ونسي أن يخلقني أنا وحدي، فرخ الأهبل هذا، هل كان يهم الله لو نسي خلقه؟ وتلبّستني أسئلة لا حل لها في تلك الليلة: ماذا لو كان الله قد نسي خلق الكون بأكمله؟ وماذا لو خلقني الله في الكون وحدي فقط؟ ثم هبط أثقل الأسئلة: وماذا لو لم يكن الله موجوداً؟ وسألت أبي والإمام، وزادت قناعة البقية بأنني «أهبل»، و«فرخ أهبل»، و«هبّ الهوا يا أهبل»، و«سطل». لم أعد أريد أن أسمع أغنية من هذا النوع، فسمّوني «الأطرش». كان أبي

ثقيل السمع، بعد كبره بالأخص، وكانت السخرية تتركز عليّ وعليه. «أطرش»، أي عالم الصوت ليس لي، تشردت منه. صرت أقرب إلى القمر: محض عين من دخان. بكلام أوضح، قاد هذا لتدمير حاسة السمع عندي.

«واو! واو! الكلمات سحر يا رجل. والعشيرة مربوطة معاً بالقلب، ولما تنحلّ روابط قلبها تتفكك، وقلبك دفع ثمن تفككها!».

«وأنت؟».

«أنا فردي يا رجل، لا أصل ولا فصل لي».

صحيح. العشيرة مربوطة معاً برابطة القلب، وكنت خارج «الرابطة». وصرت أفقد إدراكي من فينة إلى فينة، نعم أفقد إدراكي. مرّة، في بيت رجل من عشيرتنا، كان الكلُّ يضحك عليّ، حدقت في وجوههم، لم أر إلا أفواها مفتوحة، غريبة، تشبه كهوفاً مدهونة بالأحمر، كهوفا من لحم معمارها غريب. والكلمات – كانوا يتكلمون ويقاطعون بعضهم– تحللت إلى سيل من أصوات لا معنى لها، تشبه لغة أجنبية عليّ. خرجت، لم أعرف الطريق، ولا البيوت، ولا الشجر.

«هذا هو المغناطيس الداخلي. عندما ينجذب صدأ الإدراك نحو المغناطيس الداخلي لا تتعرف على خارجك!».

في آخر سنة في المدرسة الثانوية، سموني «العبقري»، بكل جدية، من فرخ أهبل إلى عبقري، من دون تمهيد.

كانت المفاجأة أنني كتبت قصيدة لمسابقة شعرية بين مدارس منطقة رام الله، ولم يصدِّق أحد أنني كاتبها، ولا حتى أساتذة أدب في «كلية بيرزيت»، أو في لجنة التحكيم، ولا حتى معلمي نفسه، واتهمت بسرقتها من «شاعر كبير» ما.

وعقدوا لي محاكمة في المدرسة، وشاع الخبر، فسميت «العبقري»، ليس المهم أنني كنت فرخ أهبل أو أطرش، أو عبقرياً، بل كوني، دائما، خارج السياق، لا أنتمي إلى أحد، شاذّاً، وغريباً، وعلى هامش الدنيا. «عبقري»، ودون مقدمات. افهمني جيداً، هذه كلمة ولا أي دليل على أي حسن نيّة فيها، في تاريخي أنا، على الأقل، وفي تاريخها هي، ككلمة.

كانت العرب قبل الإسلام تؤمن بكائنات لا ترى، مستورة، «جنّ» تتنقل بغمزة عين من مكان إلى آخر، وبعضها يقيم في «وادي عبقر»، مكان لا تحديد لمكانه، أي لا مكان. واعتقدت العرب أن جنّ هذا الوادي هي التي تملي الشعر على أي شاعر، فسمي الشاعر «عبقرياً»، أي على صلة خفية وغامضة بوادي عبقر، بكائنات مستورة. وذكر القرآن الكريم هذا الوادي عندما قال: إن الشعراء «في كل واد يهيمون». وتسميتي «العبقريّ» وضعتني على هذه الحافة بين الإنس والجنّ، بين العقل والجنون، لم تكن الكلمة اعترافاً بي، بل إقصاء أبعد لـ«فرخ الأهبل» هذا إلى البراري الأكثر غرابة.

وبدأت أحذف «أصوات الإنس» من عالمي. وماذا كان بإمكان طفل مثلي أن يفعل؟ كان حبي كلّه منصبّاً على الجبال، و«الأشياء»، ليس على الناس، كنت أستألف البراري، وأحادث الحجارة، والسنابل، والطيور، وكل ما يقع في طريقي. مرة عقدت محاكمة بين سنبلتي قمح، مثلاً، وحكمت على واحدة بأن

تذبل. وكنت ألعب في فيء الزيتون، مع «عرائس من حجر»، وصادقت عصفوراً، وكلباً. وأخيراً، عثرت على أصدقاء السفر: الكلمات! انهمكت في الكتب، من ألف ليلة وليلة إلى المعلقات، وصادقتني الكلمات كلّها، والأشياء، ولكن ليس الناس. والكلمات «مصاعد»، بالمناسبة، كل كلمة «مصعد».

رأيت أول «مصعد» في حياتي في بيروت، في ستينيات القرن الماضي. كنا نسكن في بناية ذات مدخل جميل مزيّن بالجبس والرخام، فيه مصعد ذهبي اللون، فيه مرآة ولوحة أزرار، واعتقدت أنه خزانة سحرية جميلة. رأيت امرأة كبيرة في أصابعها خواتم من ذهب، تسكن في الطابق الرابع، اسمها «أم مارون»، تدخل الخزانة، وتغلقها وراءها، ثم تصعد. وبقيت وحدي في المدخل الرخامي، واحترت أين ذهبت «أم مارون». ضغطت على الزّر، ورجعت الخزانة ثانية، وفتحتها: أم مارون اختفت، ولا أثر لها.. لم أجدها.. ذهلت.. وصرت أعتقد أن من يدخل الخزانة الذهبية يختفي، ببساطة.

مرة أتت بنت مسيحية صغيرة كانت لطيفة جداً معي، ودخلت في الخزانة، وهي تضحك. وكعادتي، ضغطت على «الزّر» بعد قليل، فرجع المصعد، وفتحته، فوجدت أمامي شيخاً عجوزاً أشيب الشعر، يحمل سلّة قشٍّ فيها كلب صغير أبيض، وخطر في بالي أن الخزانة الذهبية «تقلب» البنت رجلاً، والرجل امرأة، والطفل شيخاً. ومن العبث معارضة من يدخل الخزانة، فهو يريد أن ينمسخ لكائن آخر أو يختفي لمدة.
صرت أجلس أمامها وأراقب الداخلين والخارجين، وأفتح لهم الباب، متعجباً من لعبة الانمساخ هذه. تخيّل مدى ذهولي عندما فتحت الباب ذات يوم فخرجت «أم مارون» نفسها، بخواتم الذهب في أصابعها، وكأنها انمسخت لمدة ثم عادت إلى هيئتها الأولى، ولم أعد أفهم ما يحدث.
كنت أفتح باب المصعد لـ«الكبار»، سكان الطوابق العليا، ومنهم تاجر ذهب من الطائفة المارونية، وموظف في وزارة الخارجية من طرابلس، وكاتب فلسطيني شهير يدعى غسان كنفاني، وكان صديقاً لأبي، وهكذا. أفتحه لأرى من سيخرج هذه المرة من الخزانة، وأفتح الباب لكل من يريد أن ينمسخ أو يختفي أو.. وحسبوا أن «سرّ» فتحي للباب يكمن في رغبتي في «خدمتهم»، وصاروا، مقابل فتح الباب يعطونني «بخشيشاً» أو «إكرامية»، كنت كأنني تطوّعت في «خدمة» قوى السحر والشعوذة، وحصلت على «بخشيش» منها.
وقرّرت أن أدخل الخزانة، مثلهم، وأنمسخ إلى بنت أو رجل عجوز أو موظف في وزارة الخارجية من طرابلس، أو إلى أي «كائن آخر». دخلت الخزانة، وأغلقت بابها، ووقفت حائراً أحدّق في المرآة والسقف المذهّب، وبساط ملون بزهور برتقالية وصفراء فوق المصطبة، وأنتظر أن تبدأ المعجزة. ولم يحدث شيء. لفت نظري عمود معدني ذهبي اللون معلّق أفقياً فيها، وتعلّقت به، وأخذت أتأرجح في الهواء، وفجأة، صعدت الخزانة بي، نزلت عن العمود، فتوقفت الخزانة بين طابقين، ورأيت أمامي شبكاً أسود من الخشب خلفه جدار من الإسمنت مدهون بلون أصفر كالح، ولا أية قوة تستطيع زحزحته، حاولت دفعه ليفتح، ولكن عبثاً، وأنا ممن يخافون الأمكنة المغلقة والضيقة، دفعت الجدار ثانية بيدي الصغيرتين، ولكن

عبثاً، وشعرت برعب من المكان، وكدت أصرخ كحيوان بري من الخوف. مرت مدة وأنا أدفع الجدار، ثم تعلقت كسعدان بالعمود الذهبي، ثانية، وانتظرت ماذا سيحدث.
قاعدة المصعد مركبة على زنبركات، وحين يقف عليها أي شخص تهبط نحو الأسفل، بسبب وزنه، ولا تتحرك الخزانة عندها إلا عندما يضغط الشخص على زر في لوحة الأزرار قرب المرآة، وعندما تعلقت بالعمود الذهبي ارتفعت القاعدة ثانية، وفجأة صعدت الخزانة بي وحدها، ونجوت.
صرت أدخل الخزانة وأتعلق بالعمود، وتصعد بي أو تهبط نحو أي شخص يضغط الزر، وكانت لحظة نشوة عندي أن يفتح الزبون الباب فيجدني فيها، وكأنني أخرج له من أكمام ساحر.
الخزانة مربوطة بحبال فولاذ تجرها نزولاً وصعوداً، حبال ملفوفة على دولاب ضخم مربوط بموتور كهربائي في غرفة على سطح البناية. سرقت مفتاح السطوح، وتسللت إلى غرفة المصعد هذه، وبدأت ألعب بأزرار الكهرباء هناك، فاكتشفت أن تعطيل زرٍّ معين يقطع الكهرباء عن الخزانة الذهبية، فتتوقف حالاً. صرت أوقفها متى شئت، و«أسجن» فيها من أشاء، وكان الكل يعتقد أن الكهرباء انقطعت تلقائياً، وليس مني، ولكيلا يكتشفني أحد، لا أعيد الكهرباء، بل أسحب الدولاب بيدي، وأرفع المصعد حتى يصل أقرب باب، ثم أنزل بأقصى سرعة لأرى من «هو السجين» فيه، وأقول له أنني من «أنقذه»، فأحصل على «بخشيش»، عدّة ليرات، في كل مرة.
تحول «سجن الآخرين» إلى مصدر دخل لي، وكنت أخبئ كل «ميزانيتي الصغيرة» هذه عن أبي، ومنها أنفق على الذهاب إلى سينما كارمن، ليلاً، دون أية «مساعدة» منه، أو على البلياردو، أو على شراء إبريق بلاستيك أحمر وصغير لأمي. وفتّش أبي كل البيت عن «ميزانيتي» ولم يجدها. كنت أخبئها تحت السجادة الملونة المفروشة على مصطبة المصعد، تحت «أقدام الجميع»، فقد قدرت أن سكان الطوابق العليا، كما سميتهم، أغنياء جداً، ولن يتنازل أي منهم للبحث «تحت قدميه» عن «كنزي».
كنت منهمكاً في عالم من هذا النوع حين سمعت أطفال «الطوابق العليا» يتحدثون، همساً عن «الفلسطيني»، ويشيرون إليّ، ويتغامزون، هذا لقب لم أسمع به من قبل، أغرب لقب سمعته، وكان «أجنبياً» عليّ، كلمة مغلقة أخرى لا معنى لها أبدا –لاحقا فهمت أنه جاء من اسم قبيلة من عبدة النار–، وشكل هؤلاء «عصابة» ضدي، التسميات غريبة، بمجرد أن يصرخ أحدهم بهذا الاسم الغريب: «الفلسطيني»، يتدفقون عليّ، نازلين عن الدرج وخارجين من المصعد وقادمين من الخارج، ويطوقونني في ساحة المدخل، كانوا خمسة عشر طفلاً، على الأقل، بقيادة علي، طفل أكبر مني سناً، وأضخم جثة.
كنت طفل جبال فظّاً، وقوي البنية، وفيّ غرائز الجبال وقسوتها، صارعت جميع العصابة، كنت أقبض على رأس علي تحت ذراعي اليسرى، وأجرّه من جهة إلى جهة، حسب اتجاه الضربات، فتصيبه ضرباتهم بدلاً عني، وأضربهم بيدي اليمنى، ولكنهم كثرة، ففكرت في حيلة أخرى، أخذت عدة ليرات من تحت السجادة واشتريت مسدسا أسود من البلاستيك، وعصا شرطة من البلاستيك، وقيداً من البلاستيك، لعبة أطفال عسكرية كاملة تليق ببلد لا يستطيع العيش دون حرب أهلية كل عدة سنوات. ذوّبت ماء وملحاً معاً، وحشوت المسدس بالمحلول، وعلقت العصا على خصري، والقيد في حزامي، وانتظرتهم في المدخل وأنا أتبختر مثل الجنرال في متاهته.

ومن أول ما هجموا عليّ، قبضت على رأس علي بيد، وأخذت أجره كالعادة، وبيدي اليمنى أطلق الماء المالح في عيون البقية، وأصبت عيون مجموعة، ذهلوا تماماً، وتجنبوني لمدة، ثم خرجوا بخطة مضادة، قبض علي على معصم يدي اليمنى، وطفل آخر على معصمي الأيسر، ولم أستطع استخدام مسدس الماء، وكان من الواضح أنني سأهان كلياً هذه المرة، قمت بجرّ الاثنين معاً نحو باب زجاج في آخر المدخل، وضربت يد علي بحافة الزجاج عمداً، فنشب منها الدم، وسال على الزجاج، ولم أعد أسمع إلا صرخات رعب من «العصابة» كلها، ونزل سكان الطوابق العليا على الصراخ، وخرج أبي من الساحة.

أعني أن «الفلسطيني» أول لقب لي سال منه الدم، وأدركت عندها، ولأول مرة، خطورة الكلمات، وتصادقت أنا وعلي، وكان أول من أخذني كي أرى البحر.

بعد عدة سنين فقط من هذا، اندلعت أعنف حرب أهلية في تاريخ لبنان، وزرت بيروت، لكي أرى «طفولتي». في المدخل الرخامي، كان رجل آخر، غير أبي، يجلس على كرسي قش، وفي بيتنا، مقابل المدخل، تسكن عائلة غير عائلتي. «هل أستطيع مساعدتك؟»، قال، «بفنجان قهوة، ربما». ووقفت أتفرّس المدخل وأفكر، حين دخلت امرأة تحمل سلّة فواكه، وسألته عني، وتعرفت عليها: أم مارون!

«أتذكرينني؟»، انصدمت قليلاً ثم قالت بعد شرود: «إنت ابنو لجميل؟»، «آه، ابنو لجميل!». كان «أبو مارون» سكيراً مدمناً، يشرب العرق كل مساء بثوب نوم فستقي يكشف شعر صدره الأشيب، وله محل لبيع الذهب في «ساحة البرج»، في مركز بيروت التجاري. دعتني إلى الغداء، فصعدت معها. سألتها عن محل الذهب، قالت تدمر، وعن أبي مارون، قالت إنه مات من السكر، وعن مارون، قالت قتل في الحرب. لم يبق شيء غير أن أتناول الغداء بصمت، وأرحل. كانت المخابرات الإسرائيلية قد اغتالت غسان كنفاني، بسيارة مفخّخة، وقالت أم مارون إنهم لملموا أشلاءه عن الشجر، ووجدوا ساعده على ظهر بناية وعليه «ساعة يد» لم تزل تدق..

ما أريد قوله هو أن سبباً من أسباب هذه الحرب الدامية كان «الكلمات»، كلّ طائفة لها «اسم»، أو «لقب»، وكل طائفة تكره أي لقب أطلقته هي على غيرها، أو أطلقته طوائف أخرى عليها، ولكل طائفة «كلماتها»، وطريقة لفظها للكلمات. اللغة سحر أسود. على كل، بعد مشكلتي مع علي، وأطفال البناية، رجعت إلى عالمي الفردي. فقد صرت «طفلاً خطراً» في نظر الأطفال كلهم، وبقيت «فلسطينياً» في نظرهم، وغريباً عنهم، من «طائفة أخرى».

كنت طفل إنس أو جن منفرداً، قابعاً في ذاته، في جوف عالم خاص به، مهووساً بالأحرف، أو خائفاً من الغول، أو مجذوباً إلى القمر، لا فرق، المهم أن قلبي كان حياً، يشعر بدنيا مسحورة، بروحانية تسري في الأشياء والكون، سواء أسميت هذه الروحانية جناً، أو قمراً دخانياً، أو لغزاً، أو غولاً أو بلاهة، أو حكاية شعبية، أو حتى ضبعاً، كانت الآبار مسكونة، والكهوف مسكونة، والنفس مسكونة، وكنت «متعدداً»، فيّ أشخاص كثيرون، لكل واحد منهم اسمه، إلا أنا، أنا الوحيد الذي كان يشعر بأن لا اسم له، لا هو عبقري، ولا فرخ أهبل، ولا أطرش، ولا فلسطيني، ولا أي شيء آخر، بل ماهية لا اسم لها، وشعور سرّيّ بيني وبيني. وهذا «الباطن الشفيف»، الكائن الذي لا اسم له، الوجود بين «المسمى» و«اللامسمى»، هو من كان مفتونا بسحر اللغة، والكلمات المغلقة.

والكلمات كالأرض، مقسمة إلى مناطق نفوذ، وكنت أميّز بحدّة بين منطقتين من الكلام بينهما سياج: «كلماتهم»، هم، خبراء النهش، و«كلماتي» أنا. هربت إلى أرض من كلماتي، أرض غريبة أكتبها، وأشطبها، وأبنيها، وأهدمها، وأحادثها، وأفعل بها ما شئت، بدلاً عن عالم يفعل بي ما يشاء، و«كلماتي» تشبه العجين: طرية، في غاية الليونة، تتشكل بلمسة من إصبع طفل، أو تشبه تراباً كنت ألعب به، يشبه مسحوقاً ناعماً يتكون منه شلال فستقي ينزل من داخل قنينة، أو تشبه قنينة كنت أتخيل في داخلها قصورا بقاعات وطرق شفافة، أما الناس فحجارة، لا! لا!، الحجارة صديقتي. الناس، لا أدري! كيانات غريبة لا يمكن أن نتأكد مما هي بالضبط، لا لفظة تعني الذي تعنيه عندهم، وفيهم أبعاد غير مرئية، يشبهون بئرا برية في الجبال كنت أحبها: عندما كنت أحدق فيها تحت القمر وأتكلم، يأتي صدى واسع، عميق، يسمونه في الريف «عامورة»، روحا تجعل المكان «عامرا» بقوى غيبية ما، ومثل البئر بالضبط، الكلمات الملفوظة فيهم، في الناس، تعود إليّ بصدى مضخم، ولكنها تبدو غريبة عني، تلبستها أرواح أخرى.. اغتصبوني حتى وصلوا قلبي، يا بري، وكنت حزينا إلى حد لا يصدق!

«من منا لم يغتصب يا حسين! أفواه الناس آبار يا رجل، آبار!»..

توجد بئر من هذا النوع في قريتنا تدعى «ستي عين القبة»، في جوف كهف روماني، وعلى الباب بلوطة ضخمة، كل من كان يمر من هناك، ليلاً أو نهاراً، ويفكر بشيء سيئ، أو يبول، أو يتجاوز حداً خفياً ما، كان عليه أن يربط خيطاً أصفر أو أسود أو شريطة من ملابسه على فرع البلوطة، ومن لا يفعل ذلك، تأتيه سيدتي في الأحلام وتخطفه إلى دنيا أخرى، كانوا يقولون: إن السيدة قادرة على الفيضان، ويمكنها أن تغرق الجبال، إن شاءت. ومرت «سبع سنين عجاف»، وجفّت السيدة. قالوا: ستفيض، إن قدموا لها بنتاً صغيرة، كقربان. ولم يتبرع أحد بابنته، الناس كهذه السيدة، لم أقدم لهم ابنتي أو قرابيني كي يفيضوا بالحب، ربما، ولم أدرِ أيامها أنني أنا نفسي سأجف، كالسيدة، سرّاً، ولا أحد سيقدم لي ابنته كي أفيض.

كنت حياً، منسحراً، مسكوناً بأرواح شتى. بعدها، فقدت حتى هذا، وحلّ في روحي جفاف قلق، وبدأت أفقد قلبي نفسه، ودخل جنوني «مقام الرمل». هذا يذكرني بمنطقة غابات وأنهار كانت مقدسة عند الهنود الحمر، ودمرها «التقدم الأبيض»، وحوّلها إلى حطام بيئي، جفت المياه وماتت الأشجار، فسألوا عجوزاً هندياً، محارباً قديماً، عن سر الدمار هذا، فقال: لا أدري! كل هذه المياه والغابات كانت مسكونة بالآلهة والأرواح، ذات يوم، ولكنها الآن ماتت أو هاجرت أو أبيدت، لا أدري، وأنا كذلك، ماتت في قلبي روح الغابة والماء أو هاجرت، أو أبيدت، لا أدري.

جفاف القلب! هذا هو كل شيء، عقلي كان ينمو وقلبي يجف، الوعي السحري الذي نشأت عليه، ككل قروي فلسطيني آخر، غزته «المعرفة العلمية» الحديثة، الباردة، الدقيقة، «الموضوعية»، صرت مثل مصطفى سعيد في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال»، ومات فيّ ما مات، لا أدري، وجف القلب.

من هذا الوجع والجفاف، بدأت أكتب أغنيات، عندما كبرت. أغنية «جبينة»، التي تذكرتها وأنا أسقي البغلة الحمراء من العين، حولتها إلى أغنية لفرقة غنتها أمام عدة آلاف في مهرجان فلسطين في بيرزيت، وتفاعل الكل وراء أي حد كنت أتصوره، وكنت جالساً على سور من الإسمنت، بعيداً عن الجميع، وأراقب

فقط. عمق الغناء يأتي، أحياناً، من عمق الوجع، كما يأتي الضحك الذهبي أحياناً من كثرة المتاهات. كتبت أغنيات كثيرة، ولكن قلبي جف بالتدريج. وصلت الحالة في 1985 إلى حد سريالي، لم أعد أشعر بشيء. توقف كل شيء، ولا نفحة روح في الكلمات. وقررت تعلم العزف على الناي!. تخيل عازف ناي في هذه الجحيم القديمة!

سكنت في أواخر 1985 في بيت له «بلكون» زجاج، وحوله حديقة ورد، يقع على الحد بين القدسين: اليهودية والعربية، وكأنه في منطقة حرام ما. أمامي، على الجهة المقابلة بيت فلسطيني قديم وضخم، حوله أشجار صنوبر أضخم منه، ومحاطة بأسلاك شائكة تدهورت حالتها، جذبتني طاقة الحطام هذه، فصرت أعزف وأراقبه. شيء فيه يشبهني، هكذا شعرت. في الليل، تنبح منه كلاب كثيرة، عددها لا معقول، وتنبح، تنبح، بجنون وغضب، وكأن شيئاً يحدث في الداخل، داخل البيت، أو الكلاب، أو في داخلي أنا. حدقت حولي في الشوارع ذات المصابيح الصفراء، الشوارع الخالية، لكي أرى إن كان هناك أحد يسمع ما يحدث غيري، ولم أرَ غير شبابيك مغلقة تماماً، مرة وإلى الأبد، هكذا تبدو، مغلقة، مرة وإلى الأبد، خلفها عائلات أو عاهرات أو لا أدري، خلفها ما لا يفصح عن نفسه. حاولت أعزف، ولكن النباح طغى على اللحن، فوضعت الناي في حضني، وشردت في منطق هذا المكان. الأمكنة كالناس: تخفي وساوسها ومخاوفها في نفسها، ولها كلام خاص بها، ومنطق خاص بها.

كنت شبه عار، والضوء في «البلكون» مطفأ، وأحدق في ذلك البيت المليء بالعواء، خرجت منه عجوز منحنية، شعرها أبيض جداً، ومنفوش، وتلبس ثوباً فاتحاً من الكتان، أقرب إلى لون زهري متسخ، ونهودها متهدلة، وفي يدها اليمنى كيس قمامة أسود، صعدت إلى الشارع الخالي وهي تكلم نفسها. كل منظرها يوحي بعالم مهدم قبل قرون، عالم تسكنه كلاب تنبح بجنون في الوحدة.

في تلك الليلة غفوت، وفي قلبي قلق غامض، في غرفة واسعة تطلّ على الحديقة، واستيقظت بعد منتصف الليلة على نباح متوحش، حادّ، وكأن شخصاً معتوهاً كان يجلد الكلاب بسياط من الألمنيوم، ويمزقها قطعا، فتجن وتنهش لحمه، وسمعت صراخ المرأة، ومن دون وعي، فكرت بأن معتوها ما كان يغتصبها أو يبيدها، أو يجلدها مع كلابها، فركضت إلى «البلكون»، عبر باب الزجاج، ثم إلى الحديقة، فالشارع. كانت واقفة تحت الأضواء الصفراء تهزّ قبضتها ضد السماء لسبب ما، وتصرخ، بالهنغارية، فوجئت من كونها يهودية هنغارية، لعلها من أرستقراطية ما قبل الشيوعية هناك، أو فرّت من النازية في هنغاريا في الحرب العالمية الثانية، وسكنت في بيت فلسطيني تقليدي، ربما استأجرته، لأنه «على الحافة»، أو سكنته بعد طرد سكانه من العرب، كالعادة.

صرخت نحوها بالهنغارية «مي فون ؟» (شو في؟)، هزت قبضتها نحوي بجنون، واتجهت إليّ تنتفض وكأنني سبب مأساة كلابها، وعندها فقط، انتبهت إلى كوني بملابسي الداخلية فقط، شبه عار، ونظرت للشبابيك برعب حقيقي: أنا الذي سيتهم بمحاولة اغتصابها! وإلا، فما معنى أن أقف هكذا بعد منتصف الليل في منطقة ممنوعة، شبه عار؟ كان قضاء الليل في القدس كلها ممنوعاً منعاً باتاً على كل فلسطيني، مثلي، من «المناطق المحتلة»، دون تصريح عسكري، وسأتهم بمحاولة اغتصاب بشعة لعجوز يهودية،

وبخرق القانون معاً، ما يعني محاكمة عسكرية وأخرى مدنية. حدقت برعب في الشبابيك المغلقة، والمضاءة، ألم يرني أحد؟ وهربت لـ«البلكون»، وأقفلت باب الزجاج، وكنت أرتجف. حتى التعاطف مع الناس صار خطراً؟

جئت بعد هذه الحادثة بقليل إلى سياتل، .وصرت أتسكع ليلاً في الغابة الصغيرة المحيطة بالحرم الجامعي، وأفكر، أفكر، أفكر، أفكر، أفكر، دائماً، في أفق ما، قصيدة ما، فلسفة ما، لا قلبي يشعر بما أفكر به، ولا عقلي يتوقف عن الهيمنة على روحي، كل فكرة قطعة حطب يابسة.. نقطة. ولفت تسكعي نظر الشرطة الأمريكية، فنصبت لي كميناً: سيارة صفراء للأجرة، من نمط الـ«يلو كاب»، فيها امرأة تشبه تلك المرأة الهنغارية، نائمة بهدوء، وباب السيارة مفتوح، والفكرة أنني «مغتصب»، يبحث عن صيد، وستثير امرأة نائمة كلاب غرائزي، وأهجم. الشرطة ذكية، نواياي جنسية، بالتأكيد، لأن الجنون الذي كنت على بابه لا يترك حلاً آخر غير «شهوة بلا جمال» لأية أنثى، لكن الاغتصاب فكرة لم تخطر ببالي أبداً، والشرطة غبية: أريد امرأة، لا شبحاً!

على كل، كنت أتسكع حتى الصبح، كما قلت، وأفكر، أفكر، أفكر، ومع التعب والمشي، يتوقف رأسي عن الحركة، وأنهمك في مراقبة «الأشياء»، من أضواء النيون في شارع الجامعة الخالي، حتى «مصائد الشرطة»، وصناديق القمامة، واستولت عليّ وساوس أخرى.

مرة رأيت «بنساً» (الدولار مائة بنس) فضياً في الشارع، فالتقطته، ووضعته في جيبي، هكذا، بالصدفة، ولا أي هدف من وراء الفعل، أبداً، مجرد نزوة لامعقولة وعبثية، وبالتدريج، وجدتني أجمع البنسات، حيث يلمع بنس على بعد ميل أتعرّف عليه، صرت كقطة ترى فأراً من الفضة، وكنت أفرغ البنسات في بيتي، في «الأستوديو»، وأعدّها، كل يوم، حتى يكتمل الدولار، وأدمنت على جمع البنسات، أو القمامة، إن شئت، مثل «دون»، لكن البنسات قليلة، لا يرمي الناس بنسات، ببساطة، وإن رموها، يجمعها مشردون كثيرون غيري، ولم أعد قادراً على «المشي بلا هدف»، صرت أجمع سدّادات علب الكوكا كولا، لأشهر.

ثم خرجت من هذا الإدمان إلى إدمان آخر، عندما تذكرت أن غوغول، الكاتب الروسي الذي جُنّ في شبابه، كان يمر بنوبات كآبة، فيخترع أوضاعاً مضحكة جداً ليضحك، فقط ليضحك، وينجو من كآبته، وكتب قصصاً قصيرة مستوحاة من «هذه السخرية التي يخترعها»، غوغول كان متأثرا بـ«مسرح الدمى»، ورأى دمية في داخل كل إنسان، أو بالأحرى، رأى الكاريكاتير في الإنسان، ورأيت الكاريكاتير الذي فيّ: طالب ماجستير في الأدب العالمي يجمع بنسات وسدّادات كولا!

وتحول الهوس إلى مسار آخر: قررت كتابة قصص قصيرة أساسها هذا «العبث»، في وساوس لا منطق فيها أبداً، وساخرة جداً، كي أضحك، وأكملت مجموعة منها يتسلى بها أصحابي من الشواذ والصعاليك في «المخرج الأخير»، قبل أن أتعرف عليك، منها، مثلاً..

قصة الحجر

تلقيت حجراً بالبريد، حجراً حقيقياً، متراً في متر من الحجر. مش معقول. تلقيت قصاصة ورق

من بريد القدس الشرقية عن أن لي «طرداً بريدياً»، ولما ذهبت، قال لي موظف البريد: يكلفك استلام الطرد عشرين ألف دولار. «نعم؟ دولار زائد دولار زائد دولار، لعشرين ألفاً؟». فكرت أن أترك كل هذه البلاهة، ولكن لفت نظري أن طرداً بهذا الثمن لا يمكن أن يكون عادياً. بعت بيتنا في مخيم اللاجئين، واقترضت ستة دولارات من عمي، وخمسة من خالي، وبعت كتبي، وهكذا، حتى جمعت المبلغ، واستلمت حجرا. لم أصدق عينيّ في البداية.. حجر، لكن عليه أختاما من دول شتى، يبدو أنه بدأ رحلته من ميناء سيدني في أستراليا، ثم لميناء مارسيليا في فرنسا ثم لبيرل هاربر، وهكذا، وهكذا، منذ نصف قرن وهو يلف في الموانئ والحدود، وأخيراً، وصل ميناء حيفا ثم إلى بريد القدس، وعليه أختام من كل نوع ولون. كنت قد بعت لأجله كل ما أملك، وأخذت أخي الصغير وأمي للسكن في فندق رخيص في القدس القديمة حتى يفرجها الله، وعليّ الآن دفع أجرة لحمال يساعدني في نقله للفندق، فمن الجنون أن أتركه بعد كل هذه التكاليف. وضعته في زاوية غرفتنا في الفندق، فندق من الدرجة الثلاثين، تعيس، بلا ماء ساخن أو بارد، وجلست أمامه أفكر، مش معقول، يعني مش معقول، أمي قالت إننا انتهينا في فندق من تحت رأس حجرك، وأخي لا يستطيع الذهاب لمدرسته، من تحت رأس حجرك! عند أمي، ليس هذا «حجرنا» بل «حجرك».

كان لي عم سافر إلى الولايات المتحدة منذ سنة 1948، ولم يرجع، وقيل إن عنده بارات في لاس فيغاس، ولم يتزوج أبداً، قلت: لعله بعث الحجر ليتأكد من وجود وريث له، فهو الآن عجوز. هاتفته قال إنه لم يسمع بي ولا حتى بكوني ولدت، وسيرفع قضية ضدي إن سمع بي ثانية، قلت: لعل الحجر له قيمة أثرية ما، فبعثت قطعة منه إلى قسم الآثار في الجامعة العبرية، وجاءت النتيجة بعد أسبوع: ولا أية قيمة له، بدولار واحد تستطيع شراء ميل مكعب من حجارة من هذا النوع.

وانتشرت القصة في الصحافة، نتيجة لطرافتها، وحيث أذهب، يسألني الناس: «كيف حال الحجر؟». هربت من الصحافة لمقهى صغير في آخر ضواحي القدس الغربية، حيث لا يعرفني أحد، لأفكر في الحجر بهدوء. طلبت قهوة عربية من الجرسونة، وهي يهودية روسية شقراء ونحيفة، وبمجرد أن وضعت الفنجان أمامي، قالت: «القهوة مدفوعة، كيف حال الحجر؟».

فكرت أخيراً في استئجار سيارة، وفي أن أدحرجه من رأس جبل نحو الوادي، وانتهى. عدلت عن الفكرة، لأنني سأشعر بالذنب من وضع عائلتي في الفندق، بسبب حجر دحرجته إلى الوادي، وفوق هذا، قلت إنني لن أنسى ما حدث أبدا، سأظل أتذكر كيف دحرجته، وكيف تدحرج، وسيسكن في ذاكرتي. وزادت وساوسي منه. مثلاً، صرت أحلم بكوابيس عنه. على الأقل، لا أريد الكوابيس! فاشتريت علبة «دهان» من السوق، ودهنته بألوان زاهية جداً: برتقالية وصفراء وحمراء، وكل ما يسر الناظرين، لكي أشعر بالفرح من النظر إليه. وبدل الفرح، حلمت بأنني في سهل واسع مقمر مليء بحجارة وردية وصفراء وحمراء من هذا النوع، وأنا أركض مثل طفل يتيم يبكي في السهل بين الحجارة وينادي على أمه، ثم حلمت بحجر بحجم نصف كرة أرضية، فوقي، وأنا تحته مثل قطعة إسفنج مضغوطة، ولا تتنفس أبداً. وهكذا، لم أدر كيف أتخلص منه، وأخيراً عثرت على حلّ: قررت أن أقدّسه، فاشتريت شمعتين، وأشعلتهما أمامه، ليلاً، ووضعت حوله كؤوس نبيذ، وفوقه قصاصة الورق التي بعثها لي البريد، وصرت أسهر

قربه برهبة، وقلت لا بد أن فيه قوة غامضة وراء أية قدرة على فهمها.
حدث وأن زارني صديق يعمل دليلاً سياحياً، أيامها، وفرط من الضحك من أول ما رآني – جاء لأنه سمع بقصتي، أصلا–، ولكن لم يتوقع تقديسه، ففرط من الضحك، قلت له إنه يستطيع إحضار السياح إلى غرفتنا في الفندق. سألني: «ولماذا؟»، قلت: اسمع! سأكتب تاريخاً مزوراً للحجر، عن أنه، مثلاً كان مقدساً عند الكنعانيين، ثم سرقه الرومان في كذا وكذا قبل الميلاد، ثم ضاع لمدة حتى عثر عليه بدوي بالصدفة أثناء الحروب الصليبية، وهكذا، اترك الحبكة لي، ونطبع التاريخ في كتيب أنيق بماء مذهب، وتجلب السياح للحجر ونتقاسم الأرباح، فكر طويلاً، ثم قال كمن أفاق من حلم: «موافق».
غرقت في أبحاث في مكتبة الجامعة العبرية لشهر، وكتبت «بروشورا» راعيت فيه دقة الحوادث والأزمنة والتاريخ، باقتباسات من مؤرخين شتى، وطبعت ما كتبته، وبدأ كل شيء يأخذ مساراً جديداً. فعلاً، في مدة قياسية، استرددت كل ما خسرته، وتعاقدت مع شركة نشر سويسرية لكتابة «تاريخ مفصل» عن الحجر، وهكذا، وهكذا، مشاريع وراء مشاريع. وفي وسط هذه اللعبة الرائعة، فوجئت ذات ليلة بالشرطة تطوق الفندق، وقال لي ضابط سمين: «أنت معتقل، الحجر، كما تعلم، ملك للدولة، ككل الآثار، وقد خرقت القانون، «ولما شعرت بأنني في الزاوية ساومته: «أعطيكم الحجر، وتتركون لي المال الذي أخذته، وإلا ستبدأ فضيحة عامة حتى في الصحف، تشوّه سمعة الدولة أكثر، وسمعة السياحة!»، اتفقنا.
وأخذته الشرطة مني، ووضعته في متحف للآثار في القدس، بالقرب من «باب الخليل». وفي ذات يوم، بعد سنين، كنت مارّاً من هناك، فرأيت صفاً من السياح واقفاً على الدور لرؤية «الحجر»، وكلّ يحمل نسخة من «البروشور» الذي كتبته، ضحكت ومشيت، ولكن بعد عدة خطوات وقفت وقلت: أقسم بالله، إن في هذا الحجر سراً ما، ورجعت، وتناولت نسخة من الـ«بروشور» الذي كتبته، ووقفت أنتظر دوري لرؤيته».
قصص من هذا النوع، خطرت في بالي فكرتها حين تذكرت بأن «غوغول» ، قبل أن يجنّ، كان يمر بنوبات اكتئاب فظيعة، فيخترع أوضاعاً مضحكة للتسلية، منها صاغ قصصاً، وكنت أحاول أن أتعلم شيئاً من تاريخ الجنون العالمي هذا.
«قلبك يختنق». رد بري، «قلبك يختنق يا رجل».

ولم أدرك أنه قصد أن الحياة دون قلب، أو بقلب مخنوق «زائفة»، وكل ما كانوا يعلمونني إياه في الجامعات عن «الموضوعية» في التفكير، ليس إلا اسماً آخر لهذا الزيف نفسه، ليس إلا «حجراً» آخر في بريد أكاديمي.
كنا نتحدث في مقهى «المخرج الأخير»، يومها، مساء، وكانت نادلة شقراء تلبس «مريولا أبيض»، وذات وجه جاف أشبه بمعجون من البلاستيك، لا تبتسم ولا تجامل أبداً، ومغلقة على نفسها تماماً، تشعل مصابيح الـ«كاز» فوق طاولات الخشب، وكان بري يحدّق فيها ويدخن، بصمت. قلت: «بم تسمّي شخصاً مثلي يفكر، ويفكر، ويفكر، ولكن لا يشعر بما يفكر فيه، ويحتاج غصن صنوبر بين الكتب، ويحيا في رأسه، على رأي سوزان؟».

نظر إليّ، وقال فاتحاً عينيه بجنون، كمن ارتعب مما رأى:
– «هذا يدعى نقصاً في حشوة روحك، في جوهرك».
– «أعتقد».
قال دون أن يستمع لبقية قولي:
– «لا تعتقد، افهم، عندما يستولي العقل على الروح، يجفُّ القلب، يا رجل، أنت جافّ».
– «وما هو الجفاف؟».
– «نوع من الزيف».
– «وأنا زائف؟».
– «نعم!».
أدرت نظري في مصابيح الكاز، وكتمت غيظي قائلاً بصوت منخفض، لئلا أعكر صفو فتاة شقراء تعزف على البيانو:
– «أنا هنا في «المخرج الأخير»، وزني سبعون كيلو غراماً، وأحتلّ حيزاً، كالطاولات والمصابيح، حقيقة، بكل ما يجب أن تحترم به الحقيقة، لأنها موجودة، ما معنى أن أكون حقيقة زائفة؟».
قال:
– «كلّك شوك، لست أدري كيف أمسك بك!».
– «أنا زائف، ولكن ما هو «الزائف»؟، قل لي يا رجل!».
– «الزائف هو كل ما يضعه القلب جانباً ويقول عنه: «هذا زائف».. قلبك، وليس أنا، وضع كل حياتك جانباً وقال عنها زائفة».
– «أنا زائف؟ وأنت؟ كل من هم في المقهى يعتقدون أنك مجنون أو منفصم الشخصية!».
– «أنا مريض،على الأقل مريض، ولكنني أشفى، ولا يشفى إلا مريض، أما أنت، فحالة فاشلة، لست حتى مريضاً، الزائف حقيقة يدحضها وجودها».
صدمتني دقة أقواله: لا يحتاج أي إنسان زائف مثلي إلى أي إنسان آخر أو أي برهان آخر لكي يدحض وجوده: أنا خير دليل ضد نفسي. كان وجعي مما أراه في نفسي هذه لا يطاق، فليس من السهل أن نرى الحقيقة، وبالأخص حقيقتنا نحن. قلت، بصوت مخنوق:
– «بري، ألا تعلمني شيئاً إلا بتدميري؟ أنت تنبش أسوأ ما فيّ».
– «يا حسين، لا أدمر حين أشير إلى دمار سابق، لن تتعلّم دون أن تتألّم».
– «كيف؟».
– «هل سمعت بـ«التخلف العقلي؟»».
– «نعم».
– «هناك تخلف قلب، أيضاً، قلبك معاق، نقطة، دع قلبك ينمو يا رجل».
ومن علامات «تخلف القلب» هذا، الشعور بالذنب الذي كان يجتاحني، نوع من أنواع «تحول» الذهن إلى «قاعة محكمة» بقضاة، ومحامي دفاع، ولائحة اتهام وشرطة، ومتهم. قلبي كان قاعة من هذا النوع،

أشبه برواية «المحاكمة» لكافكا.
– «من هم هؤلاء الذين يسكنون في ذهننا ويتهموننا يا بري؟».
– «لا أدري يا رجل».
– «طيب، ما هو الشعور بالذنب؟».
أشعل لفافة تبغ جديدة من نوع «عثمان»، وأطرق لمدة ثم قال:

– «الشعور بالذنب فعالية قلب لم يتعلّم، بعد، العيش في فعاليته».
– «مثلاً؟».
– «مثلاً الأمير هاملت!».

تذكرت حلماً كنت حلمته أيامها: كنت واقفاً فيه على مقبرة صغيرة على حافة القرية التي ولدت فيها في فلسطين، والدنيا قمر، والجبال تسبح في الصمت، كنت عارياً تماماً، وعلى جسمي كله، باستثناء الكتفين، وشاح من مخمل أحمر ناعم، وكنت أقول للموتى: «أنا لست الأمير هاملت، وليس مقصوداً في معناي أن أكون..»، وهي جملة مستمدة من بيت شعر لـ«ت. س. إليوت».
هاملت متردد، عاجز عن الإتيان بفعل حقيقي وحاسم، أي عن الانتقام لأبيه، وسر «شلل» الإرادة هذا، هو شعوره الساحق بالذنب، حسب رأي فرويد. تذكرت الحلم، كما قلت، وكنت قلت مقطع ت. س. إليوت بالعربية: «ليس مقصوداً لمعناي أن أكون..». ولهذه «الترجمة» معنيان: ليس مقصوداً أن أكون الأمير هاملت، أي أنني متهم بكوني كالأمير هاملت، أو: ليس مقصوداً أن «أكون» إطلاقاً، أي أنني عدم، أقل حتى من شبح. والمكان نفسه! يا إلهي! مخمل أحمر على مقبرة مقمرة! وأخاطب، ربما، أبي الميت من سنين.
حدثت بري عن حلمي هذا. قال:
«قلبك لم يتعلم أن يشعر يا رجل، ولا أن يعيش في شعوره، إلا في حالة واحدة: تحويل نفسه إلى جحيم».
قلت له إن كلمة «قلب» في العربية تعني، أيضاً، «قلب» (الأشياء رأسا على عقب)، الانقلاب، ومن المصدر نفسه جاءت كلمة «قالب»: فالقلب يتذبذب بين كونه قالباً وبين كونه انقلابات الروح. هزّ رأسه فجأة وقال، بلذة طفل وجد شيئاً:
– «هذا هو البرزخ، هذا هو البرزخ».
لفظ كلمة «برزخ» بالعربية، وصعقني ذلك، كأنني نسيت أن بري تركي. كنا ثقافة واحدة، يوما ما، نحن والأتراك، وأبي كان يحفظ كلمات تركية كثيرة. وانهرنا معاً، نحن والأتراك، صرنا مستعمرات للغرب، وصاروا أشباحاً بعد أن قام أتاتورك بـ«غربنة» تركيا. وها نحن، أنا وبري، أبناء هذا التاريخ الضالّ، نلتقي في أمريكا، ولا نتفاهم إلا بالإنجليزية، وفقدنا صلتنا ببعضنا، إلى حدّ أنني استغربت من كونه يعرف العربية.
على كل، خطر في بالي أن «البرزخ» حاجز في القلب بين «بحرين»: بحر مالح، وبحر حلو، ومن البوابة

التي تفصل المائين، يطفح ماء المرارة على ماء البهجة أو بالعكس.
ففي أساطير منطقة البحر المتوسط، كان تمييز قديم بين المائين: المالح والحلو، وتأليه لهما معاً. وفي القرآن الكريم، جاء أن «البرزخ» يفصل بين بحرين مرجهما الله فهما لا يلتقيان، وشعرت أن «النشوة» بحر حلو في القلب، في هذه الأغوار التي لا يسبرها غير من هو أهل لها، بحر من المشاعر «الإيجابية»، كالأمل والفكاهة، وهناك بحر آخر مالح من الألم، والخوف، والندم ، والحزن، والانتقام، والحسد، والمشاعر السلبية الأخرى. بين بحر الإيجاب وبحر السلب «برزخ»، فهما لا يلتقيان إلا عندما «يتعكر العالم»، كأن يأخذ الشلال ماءه الحلو إلى بحر مالح يصبح سيداً عليه. وسميت هذا، أي اختلاط المائين في القلب، الـ«طفح»: وتيقنت أن «جنوني» يرتبط بطفح «بحر السلب» على قلبي، ومنه «جفاف القلب»، أو، كما يقولون عندنا في فلسطين: «قلبه ميت»، أو «حجر»، أو «لا قلب» عنده. وللطفح حالاته ومقاماته: في حالة «مجنون ليلى»: القلب غارق في عوالم «سلبية»، كالشعور بالحرمان من الحبيبة، والفقدان، ومنفى الشهوات ككل، بدل «جفاف القلب»، عنده «جنون قلب».
وفي طائفة «الإله بتاح» الفرعونية أن كل شيء يأتي من القلب، كتصورات تطفح منه إلى اللغة، ثم يلفظها اللسان، وحتى الآلهة تأتي كتصورات ترتسم في القلب. وعند السومريين، قبل عدة ألفيات، أن الآلهة كانت تسكر، فخطر في بالها خلق الإنسان لكي يكون عبدا لها، يطعمها ويسقيها، وأول ما خلقت «القلب الإنساني»، ثم خلقت بقية الجسم حوله. وعند طوائف الصوفية ككل، يأتي القلب في «المرتبة الأولى»، أو الثانية. أما في ملحمة جلجامش، فلا يوجد أي معنى حقيقي لـ«الروح»، بل فقط لـ«القلب»، وعندما يحلم أنكيدو بأن مجلس الآلهة قرر موته، يسأله جلجامش: لماذا يحدثك قلبك هكذا؟ وهو نفس قول الشاعر العربي القديم: «قلبي يحدثني بأنك متلفي»، والعالم السفلي نفسه في الملحمة «حلم القلب»، وحديثه، وعلى رأي نيتشة، رأى الإنسان الآلهة، أول ما رآها، في أحلامه.
كنت درست بدقة، وأنا في مكتبات الأسرار، لائحة بالمشاعر السلبية في قلب الإنسان، في كتاب «قلادة الفهم الخالص»، ولائحة بالمشاعر الإيجابية. ولكن «اللوائح» توحي بجمود جليدي. «البحر» أقرب لحركات القلب من أي شيء آخر. هناك بحران: سلبي وإيجابي، وبينهما «برزخ» أعتقد أنه «الحياد»: اللامبالاة ليست حياداً، بل موجة سلبية. «التورط في الموقف»، أي موقف، ليس حياداً، وحتى التورط في عدم التورط ليس حياداً، «برزخ الحياد» لغز.
والقلب يشبه لوح زجاج شفاف: جهة منه تطلّ على العالم والأخرى على الغيب. سألت بري:
– «ما هو القلب؟».
قال:
– «الذكاء النقي».
– «سأفكر في الأمر، سأفكر، يا إلهي، لعنة الله على تفكيري!».
– «لا تفكر يا رجل، ستفهم بطرق أخرى».

و«فكرت» طويلا، رغم ذلك، في «هذه الطرق الأخرى» للفهم، وفيما قاله. لا منأى لمن «يتظاهر» بأنه

«عاقل»، مثلي، من «عقلنة الجنون»، من أن «يتشبث» بأقوى ما فيه: عقله. وعقلي ضخم، هيكل معدني ضخم ومدهش، كان يدهش حتى أساتذتي في الجامعة، ولكنه كان «مائلاً» مثل برج بيزا، وسيسقط، مصيره أن يسقط، وقدره أن يسقط. هذه «معرفة حتمية، وأكيدة جداً»، معرفة يشعر بها «الذكاء النقي»، أي قلبي، ومن اللطيف أن الجنون مغر، غريب كم كان يجذبني، كم كنت أرغب فيه، وأنوي عليه، و«لكل امرئ ما نوى». كنت نثاراً من الصدأ منجذباً نحو جبل من المغناطيس، جبل لا أعرف ما هو، جبل مستور، مقمر، في أرض بها «شبه جنون»، ويشبه قول المتنبي: «لو كنت ملء حذائي» في مفاوز هذه المنطقة، «سمعت للجنِّ في غيطانها زجلا».

وكل ما توصلت إليه في «عقلنة جنوني» أنه نوع من إشاحة الوجه عن «معرفة أكيدة، وحتمية جداً»، عن شيء أعرفه، موجود في قلبي كله، ولكن لا أريد أن أراه، أو لا أجرؤ، أو لا أقدر على رؤيته، وبري كان يراه! وكنت أريد أن أرى ما يراه، ولا أكاد أحتمل ذلك.

وبدا لي بري أيامها مثل مخلوق برأس نسر وجسم كاهن، أو كسحرة العصر الحجري: بذنب ذئب، مثلاً، وصدر امرأة، ورأس حصان، وهكذا، تجمّع لقوى الغريزة الحيوانية كلها.

وكان طلسماً، وكنت مسجوناً، مثل «علي بابا»، في مغارة مليئة بالجواهر والذهب وأكياس الحبوب في داخل صخرة مغلقة، ولن تنفتح الصخرة إلا بكلمة السر الشهيرة: «افتح يا سمسم»، كلمة نسيتها، وكنت أهتف في جنوني: افتح يا فول، افتح يا قمح، افتح يا قرد، افتح يا.. إلا السمسم، لم يخطر ببالي. وانسجنت في مغارة «الأربعين حرامي»، وأحسست بجدران الصخرة حولي، من كل جانب، ولم أر مخرجاً، ومن أول ما التقيت ببري، عرفت أنه «يعرف كلمة السرّ».

مرة، مثلاً، التقينا في سينماتك «الوهم العظيم»، أنا، وهو، وسوزان، ودون، وعضو طائفة راجنيش، وتلك البنت الضائعة من شيكاغو والمهزوزة مثل شبكة تنس، و«وين»، الشلة القديمة كلها، وكان اللقاء مملاً جداً، فتركتهم وذهبت إلى الأستوديو. في الليلة نفسها، جاءني «دون» إلى هناك، واعتقدت أنه جاء كي يستفسر عن سبب تركي للشلة أو كي ينام عندي. «أهلاً، دون، تفضل». «لا، شكراً»، ومد نحوي ورقة بيضاء مطوية وقال: «رسمت هذه لك». وتأملت «لوحته» هذه، كانت ورقة خربش فيها قدماً متوحشة، بخطوط عشوائية وحادّة من حبر أحمر سائل، وعليها، أعني القدم، تلتف خطوط توحي بصندل جلد، أصابعها فظة، ومتسخة، وتحت الأظافر بقع حمراء داكنة، وكأنها قطعت سبعة آلاف ميل من مستنقعات قصب وبعوض. وشعرت بوجع عميق، ولم أنتبه لكون دون قد ذهب وتركني واقفاً عند الباب.

حلمت ليلتها بدون يقول لي: «يا صاحب الخف الأحمر، والقريب من النار، لست وحدك، أنت عضو في القطيع الأخضر». استيقظت وكتبت الجملة على ورقة قديمة حشوتها في جيبي، واتجهت صباحاً إلى «المخرج الأخير»، متعكراً، وأنا أفكر في «دون».

أتى بري كعادته، وطلب مني دولارين لشرب القهوة، وقعد يلف لفافة تبغ، ويحدق فيها تستدير بين أصابعه. أردت أن أقرأ عليه ما قاله لي دون في الحلم، لكنه فرد رقعة شطرنج بيني وبينه، وأخذ يرتب البيادق عليها، وفي شفتيه تعبير يوحي باشمئزاز ما، ثم قال: «يا رجل، هناك من يحسدونك على قواك،

انتبه». «من هم؟». قال: «لا يهم». «وكيف عرفت؟». «لا يهم».
لم أفهم من «هم، هؤلاء الذين يحسدونني على قواي»، ولا ما هي هذه القوى التي أستحق الحسد عليها، وخطر في بالي أن شيئاً ما حدث بعد أن تركت الشلّة بالأمس في «الوهم العظيم»، وإلا، لماذا أتاني دون إلى البيت، ولماذا يتكلم بري عمن يحسدونني على قواي؟
خرجت أفتش عن سوزان، وعثرت عليها ليلاً في «الوهم العظيم». «سوزان، ماذا حدث بالأمس؟ أعني بعد ذهابي إلى البيت؟»، قالت: «لا شيء، قلت إنك ذكي، فعلقت تلك البنت من شيكاغو: آه، بالتأكيد، هذا هو كل شيء، لمَ تسألني؟».
يا إلهي! من كلمة واحدة، «آه، بالتأكيد»، فهم بري أن تلك البنت من شيكاغو تحسدني على قواي، من كلمة واحدة فقط؟ وأنا، «فرخ الأهبل» هذا، منذ طفولتي، لم أدرك أنني كنت محاطاً بمن «يحسدونني على قواي»، ولا حتى أن فيّ قوى يمكن لأحد أن يحسدني عليها؟ من كلمة واحدة؟
بعد سنين من هذه الحادثة، شاهدت فيلم «صمت الحملان»، وهو فيلم حاد عن خياط يتخيل أنه امرأة، فيقتل سلسلة من نساء يسلخ عنهن جلدهن، ويخيط من جلودهن ثياباً يلبسها، ويشعر وكأنه تحوّل إلى امرأة، فيرقص في موسيقى وإضاءات خافتة، ويلمس نفسه بشهوة، ويتمتم لرجل غامض في ذهنه: «انكحني، انكحني».
ويقول عنه مجرم آخر في الفيلم، بروفيسور في علم النفس، لمحققة شابة: عليك أن تفهمي جوهره، خلاصة روحه، عصارته: الحسد، «ومن نحسد؟ أناساً نعرفهم!». إنه، ذلك الخيّاط، يحسد النساء على كونهن نساء، فيسلخ جلدهن، ليصير امرأة، وكنت محاطاً بكثير من خيّاطي الجلود هؤلاء! خياطين يسرقون طاقتي فأحس بالإنهاك، أو يسرقون أملي فأحس بالإحباط، وكنت أحتاج الحنان أو الاعتراف بي، أو الدفء، فلا يعترفون ولا يمنحونني شعوراً بالدفء، فينهشون قلبي، فأحس باللاجدوى، والجفاف، كنت محاطاً بطفيليات من كل نوع تلدغ الروح، خفية، وتتوالد حشرات تحت الجلد أكثر غرابة من حشرات غابات الأمازون. بري أدرك، من كلمة، إحدى أحقر القوى المحيطة بي: خيّاطي الجلود هؤلاء، وخيّاطاته!
كانت له أعين نسر وبصيرة عرّاف، وكان فقيراً كفأر معبد، ولست أدري حتى الآن كيف كان يدفع أجرة غرفته في ذلك «السكن الجماعي»، وهي أجرة زهيدة، على أية حال، مائة وخمسون دولاراً، ربما، ولكنه كان يقترض مني كل صباح في المخرج الأخير ثمن قهوته، وكل مرة يقول «سأعيد لك كل دولار، بنساً بنساً، عندما أجد عملاً»، وبعد قصة «خيّاطي الجلود»، التقيت به ثانية، ليلاً، أنا و«دون»، ودعانا للعشاء. استغربت الدعوة، وكان بري حزيناً ومطرقاً معظم الوقت، وعرفت أن شيئاً ما حدث.
خرجنا من المخرج الأخير إلى «شارع الجامعة»، وكان الإسفلت يلمع في أضواء النيون الباردة، وقلة من السكارى وبائعي المخدرات تتسكع هنا، وهناك، قرب «زقاق الجاز»، مررنا بصمت.
وصلنا ساحة إسمنتية واسعة مضاءة بالنيون، خلف سوبر ماركت الـ«سيفويه»، فيها صناديق قمامة خضراء اللون. فجأة، قال بري لي، مؤشرا نحو الصناديق: «هنا يرمون أشياء صالحة للأكل يا رجل، تعال». وركض وتسلق واحداً منها، وأخذ ينبش النفايات بيد، ويدخن باليد الأخرى، ولم أعد أرى إلا

مؤخرته مرفوعة في الفضاء الخالي، وأخيراً، بزغ وفي يده اليمنى صندوق «بيتزا» مجمدة، ولوح نحوي بها. إذن، هذا هو العشاء! لم أكن متحمسا لوجبة من هذا النوع، وشعر بفتوري، فبقيت يده معلقة في الهواء لمدة وكأنه نسيها في أضواء النيون، ثم نظر إلى جوف صندوق القمامة، وقال: «وهنا دفنت كبريائي أيضا»، ونزل.

قعدنا نأكل البيتزا في صالون بيته، بعد تسخينها في الفرن، قال إنه لم يدفع أجرة البيت، وصاحب البيت «أنذره» بالطرد، وسيغادر بيته في آخر الشهر، بعد أيام، إلى الشارع. وفهمت سر حزنه. قلت: «وماذا ستفعل بعدها؟».

– «سأتشرد!».

– «تعال اسكن معي، في الأستوديو غرفة وصالون، اسكن معي، مجاناً».

– «لا يا رجل، استمتع بعزلتك».

– «وأنت؟».

– «أحتاج العودة إلى ماضيّ كشحّاذ».

– «تحتاجها؟».

– «نعم، نعم، سأمتحن حدود فعل الخير عند الناس».

كان وكأنه يقصد أنه ينتظر مني مساعدة ما، ولكن لا مال معي، فعلا. فكررت بألم:

– «اسكن معي وانس القصة».

– «لا يا رجل، لا! استمتع بوحدتك، قد أجد عملا».

وشعرت بوجع عميق من «عشقه للمسافة» بيني وبينه. قلت له سأذهب إلى بيتي، «أتريد دون أن ينام عندك، أم هل يأتي معي؟».

ضحك وقال: «لا يا رجل، خذ دون معك، خذه، نحن كثيران على بعضنا».

ووجد عملاً في مطاعم مكدونالدز. كان عاطلاً عن العمل لسنين، ويحيا من صدقات كنائس، أو من.. لا أدري، ببساطة، لا أدري، ولكنه تركه بعد نصف ساعة، وأتاني في الثامنة والنصف صباحا، في المخرج الأخير.

سألته: «لماذا تركت عملك؟». قال:

– «يا رجل، من أول ما دخلت الباب، رأيت قاعة خالية وواسعة، مليئة بالطاولات، وعلى كل طاولة كراسي مرفوعة، وعلى كل كرسي يجلس «بري» آخر، وهتفوا، لما دخلت والمكنسة في يدي: «يا الله، نظف المصطبة كلها، يا الله!»، قلت لهم: «لن أنظف أي شيء قبل أن تنزلوا جميعاً عن عروشكم». «لن ننزل حتى تنظف المصطبة كلها، يا الله. تخيّل يا رجل، تخّيل، يفعلون هذا بي!».

كان يروي قصته مع «نسخه» بألم، ويكاد يبكي. قلت:

– «لا تتوقع أن يكون الكل لطيفا معك».

– «يا رجل، قال دارماكيرتي: إن الفعل الصحيح يجب أن تسبقه دائماً المعرفة الصحيحة بالأشياء، هؤلاء جهلة!».

وتشرد. لم أعد أراه إلا لماماً. كان يأتي ليراني من مدة لمدة في «المخرج الأخير»، صباحاً. لم يتكلم ولا مرة عن تشرده. ملابسه نظيفة: يبدو أنه كان يغسلها في «الغسالات العمومية»، ومعطفه «المارينز» محشو بأوراق كمبيوتر قديمة يكتب عليها بقلم رصاص خواطره، ولا مرّة شكا من وضعه، أو ذكر ما يحدث معه، ولا مرّة كان يبدو مهزوزاً، وقال إن حفاظه على بقائه في الشوارع يعتمد على جملتين: «ابق وحدك»، و«حافظ على قيمتك بينك وبين نفسك».

في قلب كل مشرد، مثل بري، اثنان: شحاذ وإمبراطور، وحين كان ينزل في صندوق القمامة بحثاً عن بيتزا مجمدة، كان إمبراطوره يبكي!، ورغم ذلك، لم يفقد ولا مرّة حسّه الذهبي بالضحك.

مرّة قال لي وهو فارط من الضحك: «سأصدر جريدة تدعى «أيام بري»، كتبت كلمة المحرر، لو كنت مكانك، لأحببت أن أسمعها!».

وسحب ورقة كمبيوتر وقرأ ضاحكاً، وبلذة، «لاحظت في المدة الأخيرة أن أخباري انقطعت عنكم، ولا جريدة تنشرها كل صباح، وأبشركم بـ«أيام بري»، حيث ستعرفون أخباري أولا بأول، وأعدكم وعد شرف ألا يكون باقي الجريدة مملاً مثل كلمة المحرر!». ضحكت من الفكرة، وسألته كيف يقضي «وقت فراغه» في عالم الهامش.

قال: «أنا مشغول بتصميم مركبة فضائية صغيرة، لفرد واحد، وسأرحل بها وحدي، عندما تنتهي مدة إقامتي على الأرض، بين النجوم، في الفضاء السحيق، ولن أعود. «وحتى ترحل، أين تنام؟»، قال: «زهقت من السكن في القصور المضيئة»، «أية قصور؟»، «تلك التي على الشاطئ».

ومجمل «زهقه» أنه كان يرى في أثناء تشرده، ليلاً، قصوراً مضاءة، بحدائق، قرب المحيط، ومكتوب على بوابة كل فيلا أنها «ملكية خاصة»، وكان يتخيل كل ليلة أنه يملك فيلا من هذه الفيلات، ويسكن فيها وحده، ثم، في الليلة التالية، يسكن في الفيلا المجاورة، لأنه سئم من الأولى، وهكذا، وهكذا، حتى اختتم كل قصور الشاطئ. كان مستعداً لأن يصف لي بالتفصيل شكل ستائر الحمام، مثلاً، أو روب النوم، أو الأقنعة المعلقة على الجدران، في كل فيلا «سكن فيها». الملكية الخاصة تحدد الخيال، عادة ما نتخيل أنفسنا نسكن في بيت ليس لنا أبدا، بيت أفخم مما نحلم به. وخيال بري أعظم من الحدود كلها، وحفظت هذه النقطة: لا بد من خيال واسع في عالم ضيق.

قال إنه «سيصير بليونيراً ذات يوم». «كيف؟»، «سأنزل نحو جامعة بيركلي، وأدرس علم النفس العيادي، وأفتح عيادة، سأكون أعظم طبيب للروح على سطح الأرض، وأصبح بليونيرا!، هل تعرف يا حسين؟ هناك من لا يوجد لديهم فكر، ويتسكعون في السوبر ماركتات بحثاً عن أفكار، هذا تسوق ذهني! أنا عقلي من ذهب نقي، منجم من ذهب للروح جديد، ولا يتسوق أبداً، ذهب خالص يا رجل».

– «وما هو ذهبه؟».

– «الفهم مهما حدث معك، لن أتعب من تكرار كلمة واحدة لك: افهم، افهم، افهم!».

– «وما هو الفهم؟».

– «الفهم هو أن تفهم ما هو الفهم، وماذا بإمكانه أن يفعل».

– «وبما أنني لا أفهم الآن ما هو الفهم ولا ماذا بإمكانه أن يفهم، فأنا بليد؟».

– «نعم، نعم، أحب كيف يشتغل عقلك يا رجل!»، وضحك عالياً.
– «ولماذا عليّ أن أفهم؟».
– «هناك لذة في تأمل عقد الناس. افهم، افهم، وميّز، ميّز، ميّز! خلاصة وصيتي لك: افهم وميز!».
وتشرد، لم أعد أراه إلا لماما، كان الفصل ربيعاً، وكنت بحاجة إلى كثير من النوم، والراحة، ورؤية المحيط والشمس، وأشبه «علي بابا» عندما انفتحت المغارة، بحاجة لرؤية الفضاء العادي. يا إلهي كم يصبح العادي طموحاً، أحياناً، كنت أحلم بسماء عادية، بأن أنام فقط فوق عشب أخضر تحت الشمس، قرب المحيط، وأغفو، أو في فيء شجرة في ساحة الحرم الجامعي، أو بأن أراقب سنجاباً رمادياً يقفز من فيء إلى فيء، ويقف على قدميه الخلفيتين ويحدق فيّ.
سياتل جميلة في الربيع، زرقة مياه المحيطات، وقمة «جبل رينييه» المغطّى بالثلج، ولكن المكان خادع، فكرت مرة في المشي نحو «جبل رينييه»، معتقداً أنه يبعد مسيرة ساعة أو ساعتين على الأكثر، ومشيت ساعات والجبل يبدو في المكان نفسه، لا يبتعد ولا يقترب، أوقفت سائق دراجة نارية وسألته كم يبعد الجبل، ضحك وقال: «تحتاج ساعتين بالسيارة، ربما». تربيت في جبال قصيرة القامة، ولا فكرة عندي عن جبال مثل رينييه. بعد وصولي إلى سياتل، كنت محتاراً من غيوم أميل إلى الأزرق والأسود، داكنة، ومعلقة في آخر الأفق، فوق، ولا تتحرك أبداً، ولأشهر وأنا أفكر في عدم حركتها، حتى قيل لي إنها ليست غيوماً، بل قمم جبال!
والتقيت في ذات صباح بـ«دون»، بالصدفة المحضة. لم أكن قد رأيته منذ ليلة البيتزا مع بري. «أهلا، دون، كيف الحال؟»، ضحك بنعومة، وحرك لحيته الحمراء على صدره دائرياً، وهو يهزّ يدي، ثم قال إنه «كان في السجن». «سجن؟ لماذا؟»، «جمعت كومة من قمامتي، علب كولا فارغة، ورق، عيدان يابسة، وبسطتها أمام مدخل سوبرماركت الـ«سيفويه»، «تلفنوا» للشرطة، واعتقلتني بتهمة تشويه جمال المكان!»، «ولماذا تبيع قمامة أمام مقر احتكار؟»، « لا أستطيع ترك الساحة للاحتكارات، أردت المنافسة!»، وضحكنا، واتجهنا نحو متحف آثار في الحرم الجامعي. «ما هي أخبار سوزان؟»، «مليحة، سوزان هي سوزان، قالت لي إنني أنا وبري نضعها على «منصة»، ونعبدها، كأمنا الأرض، وننسى أنها امرأة عادية بحاجة إلى صديق».
مررنا في المتحف على صخرة ملساء وصلبة جداً، ولا يستطيع خمسة مثلي ومثل دون زحزحتها من مكانها. قال: «تخيّل، أحد محاربي الهنود الحمر حمل هذه الصخرة لعدة أميال، قبائل محاربة، من تدريبات إحدى القبائل أن يركض الشخص عشرات الأميال في الشمس، وفي فمه جرعة ماء، وعليه ألا يجرعها أو يقذفها من فمه، كتيبتان من الجيش الفيدرالي طاردتا لأشهر محاربين اثنين فقط من هؤلاء، وقبضوا عليهما أخيراً، عندي صورة لهما».
وتذكرت «لويس»، مشرداً من الهنود الحمر يرسم وجوها هندية حمراء يبيعها بدولارين أو ثلاثة، تعرفت عليه في محل الألعاب الكهربائية، وفي اليوم الثاني ناديت عليه «لويس، لويس»، ولم يجب، غير اسمه إلى «جون»، ولا أية قوة في العالم تجعله يعترف بأنني أعرفه، أو بأن له أية صلة بلويس هذا، وفي اليوم الثالث غيّر اسمه إلى «جوني»، وأنكر أنني أعرفه أو أن له صلة بـ«جوني»، انتماء لويس

أو جوني أو جون، لاسمه المتغيّر فقط.
تصعلكت مع «دون» زمناً، فأخذني إلى كل زقاق فيه «خربشات أطفال»، وإلى جناح طائرة مغروس في سقف بيت مدمر، لكي «أرى الفن» في الشوارع، وأثمن ما تعلمته من دون، أيامها، أن «أقرأ الخشب»، كان يحدق لساعات في أية طاولة خشب في مقهى، ويسرح في ملمس الخشب، حبيباته، وخطوطه، ويتمتم مذهولاً: «لا أحد يرسم ما في خشبة!».
وفي ذات يوم ظهر بري، ضاحكاً، أمام باب المخرج الأخير، وقال إنه تدبر أمره، ورجع إلى السكن في غرفته القديمة نفسها، ورجعنا إلى صداقتنا الأولى، مرت مدة متوترة جداً، ثم ضربتني الصاعقة في ليلة من أكثر الليالي حزناً في حياتي.
كنا في بيته، في الواحدة ليلاً، ومعنا كان «جو»، وذلك المدمن على المخدرات الذي كان يرى «نساء عرايا» يمرقن أمامه في الليل في بيته، وكنت غارقاً في حوار ما لا أذكر حتى موضوعه، مع «جو»، وبري كان قاعدا يدخن، ويصغي، كنت متوتراً، منهكاً، وكل شيء فيّ تزعزع، كل ما كنت أؤمن به اهتز، كل نقطة ضعف انتشرت مثل بقعة زيت فوق بركة ماء قلب مقمر، كنت على الحافة، باختصار، ذهنياً وفيزيائياً، فجأة، تدخل بري في النقاش وقال: «يا رجل، يا رجل»، فتوقفت مستغرباً، وانتظرت ما سيقوله، قال «الأنا عندك أكبر من مدينة سياتل!»، فوجئت، لأن الموضوع لم يكن عني أو عن أي شيء، في الحقيقة، وتقمصتني نوبة من جنون، فمددت جسمي مثل جسر فوق الطاولة، وهززت إصبعي في وجهه قائلاً: «أناي أكبر من نيويورك وأحبها، فاهم؟ لا تتجرأ على مقاطعتي مرة أخرى!». كنا عادة ما ننفجر، ولكن هذه المرة كانت في كلامي نبرة تهديد لا أثر فيها لأية صداقة، ولم أكن أتخيل أن هذه الحادثة البسيطة، في نظري، ستجلب انهيار صداقتنا كلها.
رمى نفسه على مسند كرسيه الخشبي ببطء، مصدوماً، وبصمت، ولف لفافة تبغ، وتغيرت كل تعابير وجهه بطريقة لم أرها أبدا من قبل، وبدا لي وجهه أشبه بهذه اللوحة ذات الانفجار الأخضر الحادّ، التي رأيتها في غرفة نومه، وجهه بدا مربعاً صغيراً مقصوصاً من صورة بالأبيض والأسود، ومنه تصعد موجات وكتل خضراء مجنونة، ويكاد يغيب في الفيض، كانت الإضاءة صفراء، شبحية، والصمت شاملاً، وأدركت أن شيئا انكسر بيننا لأول مرة، «بري، متأسف، يا رجل، فعلاً متأسف».
لم يجب، واصل لف لفافة تبغ من نوع عثمان، وهو يحدّق في رؤوس أصابعه، نهض «جو» وصاحبه، وخرجا، وبقينا وحدنا، مرت مدة خلتها أبدا، ثم نهض واقفاً، وقال: «يا رجل، سأحجب عنك من الآن فصاعدا معرفتي!».
ومشى نحو جيتار قديم كان مسنوداً على الحائط، مقابل باب المطبخ، وكنت نسيت حتى وجود هذا الجيتار، تناوله، وقعد على كرسي بعيد جدا عني، في آخر الطاولة، وانحنى فوق جيتاره وبدأ يعزف ارتجالا، نظرت إليه، في محاولة لسبر أغواره، فذكرتني كتلته المنحنية حول الجيتار بلوحة «عازف الجيتار»، لبيكاسو، وبكل «مرحلة بيكاسو الزرقاء» في الرسم.
لم أكن قد سمعته يرتجل موسيقى قبل ذلك أبداً، إلا مرة في حانة فندق الجامعة، حانة تحت الأرض، ينزل إليها درج قديم في زقاق ضيق، صدمني فيها دخان كثيف، ولعب بلياردو، وسكارى، وطالبات

جامعة، وضجيج، جلس على البيانو، في الزاوية، ووجهه نحو الحائط، وبدأ يعزف، بعد دقيقة فقط، كانت الحانة كلها صامتة، من كان يشرب كأساً، وقفت الكأس في يده، وأصغى، ومن كان يثرثر، نظر نحو الزاوية وحملق في هذا المشرد، كان يدخن، ويضع لفافته فوق إصبع بيانو، وينفخ الدخان، ولا يرى أحداً، وكل جسمه يتحرك، ويهيج، مع اللحن، مع لحن فيه نفس هذا الهدير الساحر والمجنون الذي في بحر صوته، فيه الزبد القمري نفسه الذي يبزغ من وسط موج أسود غامق، نفس الحزن فوق الإنساني في لوحته الخضراء، نفس هذه الأغوار التي شعرت دائماً، بسببها، أنني، مهما عرفته، لا أعرف عنه شيئاً، وظلّ وجهي شاطئا بالنسبة إليه، وهذه كانت أول مرة عرفت فيها أنه موسيقار، والآن، كان يرتجل على الجيتار ويغني:

«إلهي، أنت قدير على كل شيء، وذلك يعني أنني عاجز ليس يقدر يفعل شيئاً،
إلهي، أنت عليم بذات الصدور، وذلك يعني أنني لست أعلم شيئاً».

كنت أصغي فقط، وأهوي، أهوي، مثل ريشة نسر تسقط في عتم وريح ومطر في قرارة قلب لا قرار له، نظرت إليه فوجدته يبكي، ومخاطه يسيل من أنفه، وأخيراً نهض، ومسح دمعه بكم معطفه المارينز، ومخاطه، ولم أستطع أن أصبر أكثر، نهضت وقلت: «بري، يا رجل، يبدو أن وقت الوداع جاء»، هز رأسه، ومرت دقائق صمت، وفهمت أن عليّ أن أخرج، قلت بحزن «بري، تحملني، لدي سؤال أخير: يوماً ما قد أكتب عما حدث، أتسمح لي بذلك؟ إن لم تسمح، وهذا حقك، أقسم لك بالله، لن ألفظ لفظة واحدة لأي مخلوق على سطح الأرض عنك، ولا عني معك».

قال: «يا رجل، انس بري، انسه أنت، أيضاً، من الخير لك ولي ألا تكتب شيئاً، ولكن إن شئت أن تكتب، فهذا شأنك وحدك». ومدّ يده للوداع، ومددت يدي.

كنت مختنقاً بشكل لم أعرفه من قبل، وخرجت، نزلت الدرج الخشبي إلى الشارع، ونظرت خلفي، كان قد أغلق باب الزجاج، ولم أر خلفي شيئاً، كان وكأن يداً من الغيب قبضت على حنجرتي بأصابع من حديد ودمع، لم أستطع النوم ليلتها، وقررت أن أنتظره في «المخرج الأخير»، حيث يأتي ليشرب قهوته في الصباح، كالعادة، ولكنني غفوت دون أن أدري، قبل الصبح بقليل، واستيقظت برعب، كانت الشمس قد طلعت خلف الجدار الزجاجي، فركضت إلى المقهى، كان مفتوحاً، ودخلت، لا أحد هناك، جلست بقرب جداره الزجاجي أحدق في الشمس والعشب وأنتظر، أتت نادلة بمريولها الأبيض، وشفتين أقرب لمعجون من البلاستيك، ومسحت الطاولة، ثم وقفت بدل أن تذهب، قائلة، بعد تردد: «اسمح لي يا مستر، هل تدعى حسين؟». «نعم». «صديق لك يدعى بري جاء هنا، وقال إنه يتمنى لك السلامة، ترك سياتل». «تركها؟ متى؟». «قبل ساعة». «كيف شكله؟». «معه عصا برية، وجيتار قديم». شعرت بغصة، وبالكاد كان لدي صوت: «أين ذهب؟». «لكاليفورنيا، سانتا مونيكا، ولن يعود».

خرجت في أتعس شعور مرّ بي في حياتي، لم أر بري أبداً بعدها، لم أره أبداً، شعرت بفراغ كوني، بضيق في المكان، بأن كل مكان هنا مصيدة، حاولت كل شيء لكي أنسى، ولكن عبثاً، وجهه كان يطل من كل شارع، وزقاق، ومكان، ومشيت على غير هدى، وذهني يقفز من ذكرى معه إلى أخرى.

مرة، مثلاً، في ثمانينيات القرن الماضي، كنت أدرس مادة عن الفلسفة مع ذلك البروفيسور الأمريكي الذي كان مذهولاً بشوارع رام الله الخالية، ليلاً، والمضاءة بمصابيح صفراء، وكنت مهتما بمسألة الجنون، لا أذكر ما الذي حدث، لكن وجدتني غارقا معه في مناقشة عن العهد القديم، يقول الرب لموسى أن يذهب إلى مصر ليخرج بني إسرائيل من هناك، فيسأله موسى: وماذا أقول لهم، إن سألوني من بعثني إليهم؟، فيرد الرب: قل لهم «أنا من أنا» بعثني إليكم، وتعني الجملة في العبرية: أنا كنت من كنت، وأنا من أنا، وسأكون من سأكون، نظر البروفيسور إليّ من فوق إطار نظارته البيضاء الصغيرة جداً، والمعلقة فوق أنفه، قائلاً: «حسين! ماذا يعني لك جواب الرب هذا؟»، قلت: «لنفترض أن الرب زنبقة، وأنا لا أعرف شيئاً عن الزنبق كله، فسألتها من هي، ستجيب: أنا كنت زنبقة، وأنا الآن زنبقة، وسأكون في الزمن الآتي زنبقة!، لن أفهم شيئاً من هذا الجواب سوى أنها زنبقة أبدية، وأنا لا أعرف شيئاً عن أية زنبقة ولا عن معنى هذا كله»، هزّ البروفيسور رأسه.

الجنون عندي كان كالرب، زنبقة من هذا النوع، أعرف أنها موجودة، وكانت ما كانت، وهي ما هي، وستكون ما ستكون، كنت أجهل أي شيء عنها ما عدا «وجودها».

والآن خطر في بالي أنني سألت بري السؤال نفسه: «بري، ما هو الأنا من أنا؟».

قال: «واو يا رجل واو! هذا هو الضوء الأزرق».

هزني جوابه، كنت سمعته يتحدث عن «الضوء الأزرق» مرات قليلة فقط: مثلا، حين قال إن «طائري الأزرق» زاره في الليل، وحين قال إنه «سيعيد الضوء الأزرق عاريا نحو بيته»، وفي مرة ثالثة كنا فيها راجعين إلى بيته عبر ممرات الغابة الصغيرة في الحرم الجامعي، ونمشي بقرب سور إسمنتي ما، تحت رذاذ النيون، تمتم لنفسه: «بري، لا! لا!، قلت: لا يا بري!»، سألته عم ينهى نفسه ولكنه لم يجب، ثم قال: «يا رجل، في كل إنسان توجد قوة غامضة مستعدة حتى لمضاجعة الأم والأب والشجر والسعادين!».

ربما أنه رأى نفسه يضاجع أمه أو أباه أو سعدانا ما، في خياله، وشعر بأنه يقترف حراماً ما، قلت بموارية: «الأخلاق مستحاثّات متحجرة، لا تصغ لأية أناشيد أخلاقية»، قال: «يا رجل، استمتع بحياتك، أنا لي جحيمي الخاص»، قلت: «ربما، ولكن خرق المحرمات الأخلاقية قد يقود إلى جحيم كهذه»، غضب، لسبب لم أدركه، وقال: «يا رجل، إن نظرت إلى الدنيا بعيون الضوء الأزرق لا توجد أية أخلاق، ولم توجد أصلاً، «قلت: «وكيف، إذن، تميز بين الخير والشرّ عندما تكون في صحبة الضوء الأزرق؟»، قال: «بالذوق، لا أفعل شيئا ما لأنه ليس من ذوقي».

حاولت، بموارية، أن أفهم موقفه من الجنس والضوء الأزرق، سألته:

«هل كنت امرأة في حياتك السابقة؟»، قال: «نعم، كنت امرأة، وإلى حد الملل، كنت أجن حين أرى عضواً ذكرياً، وكانت كائنات تنزل من إستي وتهتف بي: لوطي، لوطي، لوطي!».

«وهل هذا من ذوقك؟».

«ومن ظلال الأزرق».

من شذرات من هذا النوع، كان عليّ أن «ألملم» ما الذي يعنيه بالضوء الأزرق، وقادني هذا إلى أبحاث في مكتبات الأسرار، وإلى عوالم لم أسمع عنها من قبل، ولا أعتقد أن أحداً آخر، غير بري، سمع بها، إن كان

هو، حتى، سمع بها أصلا، وهذا بالضبط ما أحاول أن «أكتبه»، وأجد صعوبة جمة حتى في مقاربته من بعيد. من الصعب أن أروي ما هو «الضوء الأزرق»، عند بري، لسبب، كلامه طلسم، مثلا، في ليلة ما، بعد لف ودوران، قال، في تلميح بلا تصريح لقصة ذهاب النبي موسى إلى مصر: «عندما رحل الضوء الأزرق إلى مصر، تساقطت عنه قشوره».

قلت: «قل لي بوضوح: ما الضوء الأزرق؟».

قال: «ستصله بطريقتين: إما بالرقص أو بالعقل».

«ووصوله، هل هو كصعود الدرج؟».

قال: «نعم، تجاوز نفسك، إما أن تتجاوزها بالوجود أو بالمفاهيم».

«كيف أتجاوز نفسي بالوجود؟».

قال: «عندما تنفجر كطاقة زرقاء في الكون وتعيد الضوء الأزرق عارياً نحو بيته».

«بالرقص، مثلا؟».

«نعم».

«وكيف أصله بالمفاهيم؟»

«بكلام يفيض مني عليك ومنك علي، حتى تتعلم أن تفيض من نفسك على نفسك».

«وإن وصلت هناك، بم تسميني؟».

قال: «بالعقل الكل»، (لفظ «العقل الكل» بالعربية، وفوجئت تماماً، وكان يقصد «العقل الكلي» عند الفارابي، مثلا).

هذا نموذج على «كلامه»، ومن العبث محاولة إيصاله لمن لا يلتقط المعنى بقدرة عراف أو جن، هل عليّ أن «أكون دقيقاً» هنا؟، قال فنان فرنسي مرّة إن «الدقة ليست هي الحقيقة»، وأنا أقول: لا تطلبوا مني لا «الدقة»، ولا تذكر «الزمن» هنا، فالزمن لكل من يمتلك «معرفة مرتّبة»، متى حدث هذا الحدث أو ذاك؟ لا أدري، أعني، عندما أتأمل ذاكرتي، بأن الأشياء تحدث «بعد بعضها»، في تسلسل زمني ما، ولكل هذا التسلسل «ملف» محفوظ في الذاكرة، لكن القلب له «ترتيب» آخر، ما حدث قبل عشرين سنة، أحيانا، يبدو لي وكأنه حدث بالأمس، وما حدث قبل سنتين، يبدو وكأنه حدث قبل عشرين سنة، وهكذا، وهكذا، فالقلب يرتب «أثاثه» حسب مدى أهمية أي حدث بالنسبة إليه، ضارباً بعرض الحائط كل «نظام الزمن السائد»، أو الذي يجب أن يسود، و«الدقة» في نقل تجربتي مع بري لا تؤدي إلا إلى بلاهات، مثل من يريد أن ينقل، وبدقة، كيف يتموج البحر المتلاطم تحت القمر، ما الضوء الأزرق؟

سألني أخي، فادي، وأنا أكتب هذا النص: «ماذا يربط أرنبا عند قارئة بخت شيعية، بأرنب في ذهن مصاب بعقدة العظمة في عمان، بأرنب في قصة لصوفي في سياتل، بنص عن الأرانب تكتبه الآن؟»، قلت: «يمكنك أن تسمي ما يربط كل هذه الأشياء معا بالضوء الأزرق».

على كل، على كل، فكرت أن «الضوء الأزرق» حدس ما غريب، وفي السفر إليه، لا يجب أن أفقد «حسي العادي» بما حولي، واخترعت تكنيكاً مفيداً: أن «أكتم» أقصاي عمن يحيطون بي، وأن أرتدي قناعا يدعى «العادية»، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، أي أن أتشبه بـ«مركز الدائرة»: محيطها يلامس الهواء

خارجها، ولكنه مقفل، والمركز في بطن المحيط كالجنين في بطن أمه، وهذا البطن قناع، أعطني من فضلك، ماذا؟ قناعا آخر، قناعا ثانيا!»، هكذا قال نيتشه .

وقررت أن «أستقيل» عن عدة عادات في حياتي: ألا أسعى لأن أكون «الأول» في أي شيء، أو، كقول غوتة، «بنيت بيتي على العدم، ولهذا، فكل الكون لي، سيدعو الناس هذا «صعلكة»، وشذوذا، وسنتبهون إلى كل ما هو «خارجي»، إلى قشوري، وعلي زيادة القناع قوة بأن أطيل شعري أكثر، وأرتدي صندلا غير رسمي، وكل ما من شأنه أن يكون قشرة أخرى تبعد الناس عن «مركزي» و«روحي»: ملابسي، شعري الطويل، تشردي، فظاظتي، وسيفكرون ما يأتي على بالهم، فليكن، هذا نافع، هذا قناع ثالث، أعطني، أعطني، ماذا؟ قناعاً ثالثاً، من فضلك، قناعا آخر.

وعليّ أن «لا أصارع الناس» في دنياهم، سأعزل نفسي في قوقعة من علاقات قليلة، مع بشر «استثنائيين» فقط، بأقل عدد ممكن، وسأتحول، كما تعلمت من «طريق محارب مسالم»، من شخص استثنائي في عالم عادي إلى عادي في عالم استثنائي، وسأتجنب أي صراع لا جدوى منه، سأتجنب، كشبح لا يخرج من بيته إلا بعد منتصف الليل، ماشياً في الأزقة الخلفية، محاطاً بفيلات فيها كلها أضواء، وحفلات كوكتيل، وموسيقى مبتذلة، وجنس، وسياسة، وصراع على المناصب، وعواء، وكل ما أرجوه ألا ينتبه أحد لمروري، أعطني من فضلك، أعطني، ماذا؟ قناعا آخر، قناعا رابعا.

سأراكم على وجهي أكبر قدر ممكن من الأقنعة، وتحت هذا كله، سأصعد إلى الضوء الأزرق عارياً، وحدي، ومن بعيد، حتماً، بقلبي، سأعرف طيراً أخرى تسري نحو مسراي ذاته، طيوراً سأحييها من بعيد، سأقتل في نفسي كل حزن يكسر روحي، ويشكو من «وحدة الرحلة»، وأرقص، أعطني، من فضلك، ماذا؟ قناعاً آخر، قناعاً سادساً.

«نشيد أقنعة»؟، شعرت بأني فهمت لأول مرة القصة المشهورة عن النبي محمد حين طاردته قريش فاختبأ في غار في الجبل، ومرت قريش فرأت على باب الغار نسيج عنكبوت فاعتقدت أن «لا أحد هناك، في الداخل».

قناع النبي كان «نسيج عنكبوت»، و«لا أحد هناك في الداخل»، أخفى الله وجه نبيه بنسيج عنكبوت، بقناع ما، ولم تدرك قريش أن «خلف النسيج» وجها، هذا خير الأقنعة: أن يبدو الوجه للخارج نسيج عنكبوت لا يرى عبره أحد إلا من سافر في صحبة الضوء الأزرق، وكان النبي في غاره «يتأمل»، والتأمل عبادته السامية، وزيّفوا هذا فقالوا «كان يتعبد»، كي ينفتح الدرب للجهلة الذين لا «يتأملون»، جهلة تكاثروا حتى تدهورت الثقافة العربية الإسلامية، فاشتكى واحد من أعظم عقولها: الشيخ محيي الدين بن عربي، من تكاثر «المؤمنين»، وقلة «العارفين أصحاب الكشوف» في زمنه، ولكن لا، لا أقصد شيئا، لا أعني، أسحب الآن كلامي، أعطني من فضلك، ماذا؟ قناعاً، قناعاً سابعاً، وإلى دون، وسوزان، وبري، أهدي هذه الكلمات عن الضوء الأزرق.

---

* شاعر وكاتب فلسطيني يقيم في بيرزيت.

(1) الجزء الثالث من السيرة، وستصدر الأجزاء الثلاثة من «الضوء الأزرق» في كتاب عن «دار الزاهرة» التابعة لـ«بيت الشعر» بصدور هذا العدد من «الشعراء».